نخبة الدهر

في عجائب البر والبحر

كثير من كتبنا كادت تفقد بتةً لو لم يتداركها الافرنج بانتساخها اولاً وبنشرها بالطبع ثانياً ومن جملة هذه المخطوطات هذا الكتاب لشمس الدين ابي عبد الله محمد ابن ابي طالب الانصاري الصوفي الدمشقي المعروف بشيخ الربوة . فيما نعلم من نسخ هذا التأليف اربع نسخ في خزائن اوربا فقط الاولى في كوبنهاغ والثانية في ليدن والثالثة في بطرسبورج والرابعة في لندن وفي هذه عدة نسخ منه لا نجد من هذا الكتاب الذي ألف في دمشق بل ولا في سورية نسخة مخطوطة فيما نعلم حتى تداركه كل من المستشرق فرين الروسي والمستشرق مهرن الدانيمركي وطبعاه سنة ١٨٦٥ م ١٢٨٦ ه ونسخ طبعه اليوم عزيزة جداً كسائر الكتب العربية التي يطبعها المستشرقون في اوربا لغاياتهم الخاصة في الاكثر

وشيخ الربوة هذا كان من اعاجيب الدهر معاصراً لابي الفداء صاحب حماة العلامة المشهور قال فيه صاحب الدرر الكامنة انه كان يصنف في كل علم سواء عرفه ام لا لفرط ذكائه . قال الصفدي ولد سنة ٦٥٤ وعاني الاشتغال فمهر في علم الرمل والاوفاق ونحو ذلك وكان ذكياً وعبارته حلوة مقبول المحاضرة وكان يدعي انه يعرف الكيمياء ودخل على الافرم فاوهمه شيئاً من ذلك فولاه مشيخة الربوة وله السياسة في الفراسة مطبوع وله غيره مثل كتاب في الاصول ومن شعره

النفس بحيث لا تنفك قابلة مما تقابل من حال ومستقبل
كنحلة طرفاها في مقابلة فيها من السم ما فيها من العسل

توفي في صفد سنة ٧٢٧ بعد ان فقد بصره قبل موته وذهبت عينه الواحدة وكان صبوراً على الفقر والوحدة كثير الآلام والاوجاع وكتابه هذا في هيئة الارض واقاليمها وتقاسيمها واختلاف القدماء في ذلك وعلاماتها ومعمورها وما بث فيها من البحار المتصلة والمنفصلة والجزائر والجبال والانهار والبحيرات والآجام العظيمة والعيون والممالك

وممالكها والامصار الكبار وسابلتها والآثار القديمة والهياكل العظيمة والعيون والآبار والينابيع العجيبة والحيوانات النادرة الشكل والنباتات الغريبة والمعادن الطاهرة المشرقة وتوابعها في المعدنية والاحجار الشريفة الثمينة والتي تليها في الشرف والقيمة والتي تلي ذلك مما هو ممتاز من التراب بوصف خاص او خاصة ذاتها ووصف الوان الاحجار الثمينة وخصائصها وخواصها ونعت بقاعها ومعادنها وذكر اسباب توليدها على ما ذكره الاقدمون وذكر مساحة الارض ومسافات اقسامها بالساعات والاميال والبرد والفراسخ والدرج الفلكية واطوال الجبال وعرضها ونعت الامم المبثوثين فيها وذكر معظم انسابهم وآبائهم الاولين وذكر علة اختلاف الامم المشهورين منهم ونعت خلقهم وذكر خصائص البلاد المختصة ببقعة دون بقعة وبلد دون بلد وذكر ظواهر خصائص البشر المشتركة فيها مع النوع الانساني دون باقي الحيوانات ونعت معالم رسوم الاديان واسماء شهورهم واعيادهم وقرابينهم الى ما وجد من آثار علومهم وما يتحلى بلوازم ذلك ولواحقه وختمه بصورة جغرافية دهنها بالاصباغ وتخطيطا محررا على مثل مواقع الاطوال والعروض والاصقاع في المعمور لتكون مثالا حسيا مشاهدا بالحس يشهد منه ما اوضحت وصفه من الهيئة وليكون الوصف برهانا لما مثلت امثلته بالجغرافية المذكورة وكل ما هو من الدهان ملون أزرق فهو مثال بحر مالح صغر او كبر دق او عرض وفي الزرقة من لون مخالف فهو مثال جبل او جزيرة وكل ما هو في ذلك وفي ما يليها من لون اخضر فهو مثال بحيرة حلوة ونهر جار وكذلك طال او قصر دق او عرض وكل ما هو فيهما من لون حماري أو خمري أو اصفر أو حجري أو ابيض أو غير مستطيل مخطط خطوطا بسواد فهو مثال جبال ودروب مشهورة وكل ما هو صورة خط اسود مستطيل من مشرق الجغرافية الى مغربها فهو مثال فصل ما بين اقليم واقليم من الاقاليم السبعة وما وراءها وما خلف خط الاستواء منها وكل ما صورة عمارة وتفصيل حجارة بالتخطيط فهو مثال سور أو برج أو مدينة أو هيكل مشهور في الارض »

هذا ما قاله المؤلف في وصف كتابه وهو كما نرى يحوي غير الجغرافيا فنونا كثيرة مثل علم طبقات الارض وعلم المعادن وعلم خصائص الشعوب وعلم الانسان وعلم الحيوان وعلم الانساب والتاريخ والآثار ونحو ذلك وقد اجاد كل الاجادة في وصف جغرافية بلاد الشام بحيث يصور لك حالتها في القرن السابع والثامن بالغالب احوالها كلها ولم يقصر في جغرافية مصر عن هذه الغاية . اما في بحثه عن الآثار فهو في الغالب ينقل كلامه عن

الأفواه او عمرت القوا في القصص والحكايات ليحشو العامة وهذا يؤخذ كلامه بالحذر خصوصاً وكتابه قد سماه بعجائب البر والبحر وهو يحشوه من هذا القبيل وفيه المفيد مع ذلك

اما في الجغرافية فقد وصف فيه بلاد السودان والزنج والبربر وغيرها في أواسط افريقية مما لم يطلع عليه علماء الجغرافية الا في العهد الاخير وكذلك وصف من ام جزائر البحر المحيط الشرقي وما والاه من الامم وورد من اسمائهم ما لا يعرف الآن ولعله حرف بالطبع لان طبع هذا الكتاب غلب عليه التحريف في الاكثر . في و[illegible] الخ اما فيه [illegible] وصف مدن جنوبي [illegible] باسمائها الكثير على عادة اكثر جغرافيي العرب بان قال انه يسكن اقوام من الارض اما اميركا لم تكن قد كشفت في عهده ولكن اطال في الكلام على بحر الظلمات وهو اوقيانوس الاتلانتيكي وما فيه من الجزر وعلى سواحله من المدن وبالجملة فان الكتاب مما يدل على اتساع دائرة العرفان وفيه بعض صور ولكن لا كما في اشار اليها في مقدمته من الاصباغ الملونة والتفريق بين المدن والاصقاع بالوان متباينة ولكن ما فيه من الصور يدل على تفنن وان قدماء العرب كانوا ايام حضارتهم اشبه بحال الغربيين اليوم يميلون الى تصوير المواد العلمية وان كان الاوربيون سابقين في ذلك حتى يكادون لا يصدرون كتاباً بدون صور

وهاك الآن نموذجات نقلناها من الكتاب دلالة على نفس مؤلفه خلافاً لما رواه يخلطه في تأليفه فلا [illegible] الا من يرد ورد عليه وكفى الجزء دليلاً ان نعد مطالعته

قال شيخ الربوة في ذكر تولد الجبال والحجارة والرمل والكلام على كيفية تكوين ذلك ونشئه وصفته قال العلماء بذلك ان الجبال الصغار والتلال قد تكون من الزلازل الكائنة من الرياح المحتبسة في الارض المتموجة تحتها حيث ترفع بعضاً وتخفض بعضاً ومن صحة ذلك انه في سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة كثر المطر في الشام قليلاً وقصرت ينابيع العيون فاستسقى الله عز وجل والناس في ايام الصيف فخرجت العيون وزادت الانهار زيادة بقدر ما كانت ثلاث مرار واربع مرار وهذا صحيح وقد يكون بامتلاء الرياح العاصفة على بعض اجزاء الارض المكشوف والقفر الذي يصير ما سفت عليه ربواً ومن صحة ذلك انه في سنة سبع عشرة وسبعمائة كان في الجبل الشرقي من بيروت كثيب يمتد على ثلاثة فحملته الريح الى ارض بعيدة [illegible] وكأنه لم يكن [illegible] الا من تلك الارض وكأنه لم يكن على الجبل حجر مزروع فقط والى تلك السنة انقضت حمل الريح

ديراً يقال له دير سمعان قريب من تلك الارض بحيطانه ورهبانه وما كان في الدير من قمحهم وشعيرهم وبقرهم ودوابهم وعددهم حتى كأنهم لم يكونوا ولم يعلم لهم خبر ولم يطلع لهم على أثر وسطر بذلك محضر شرعي وطالعوا به الى السلطان محمد بن قلاوون خلد الله سلطانه ورحم ملوك المسلمين اجمعين . وفي سنة سبعمائة نزل جبل عال شامخ في بيت المقدس بقرب من عين مروج التي على الطريق فصار ما كان مرتفعاً وطياً في الارض وهو الى الآن ارض مياه تنبق لها حركة على جزء من الارض دون الآخر ليغمر ما يسيل فيه ويبقى ما لا يسيل فيه رابياً ثم لا تزال السيول تعوض في الجزء الاول الى ان يعود طوراً ويبقى ما انحرف عنه سامياً ومن العجب العجيب مغارة بالشام يخرج منها جدول ماء ما جاوز كعب قدم الخائض فيه فاذا دخلها الانسان وجدها واسعة طويلة المدى نحواً من اربعة آلاف خطوة تحت الارض والماء يقطر من جوانبها وهي كصورة الأزج الطويل والقبو المبني ولكنها مغارة منحوتة وتجد تحت كل ماء قطر من سقفها حجارة جامدة من الماء المتقاطر مختلفة الالوان والشكل فمنها كهيئة العسل في لونه وكهيئة الثمار وهيئة النجوم وهيئة الاعضاء وهيئة الحبوب وهيئة النقل وهيئات متنوعة وكلها حجارة جامدة من تقاطر الماء . أصباغها صادقة في الحمرة والسواد وغيره وسميت مغارة العجب لذلك قالوا وقد تتكون أنواع الحجارة في النار

وقال في ذكر نوادر الاحجار الثمينة المهدي بها بعض الملوك الى بعض وذكر قيمتها ومن ذلك ما وجد في خزائن الخلفاء والوزراء من الجوهر النفيس والقطع الفاخرة الدرة اليتيمة وسميت بذلك لانها لم يوجد لها في الدنيا نظير حملها مسلم بن عبد الله العراقي الى الرشيد فابتاعها منه بسبعين الف دينار (١) ومنه الفص الياقوت الاحمر المسمى بالجبل كان وزنه اربعة عشر مثقالاً ونصفاً اشتراه الرشيد بثمانين الف دينار وكان للمتوكل فص ياقوت احمر وزنه ستة قراريط اشتراه بستة آلاف دينار وكان له سبحة فيها مائة حبة جوهر وزن كل حبة مثقال اشتريت كل حبة منها بالف مثقال . واهدى بعض ملوك الهند الى الرشيد قضيب زمرد اطول من ذراع على رأسه تمثال طائر ياقوت احمر لا قيمة له فقوم الطائر بمائة الف دينار . ودفع مصعب بن الزبير حين احس بالقتل الى مولاه زياد فصاً من الياقوت الاحمر وقال : انج بهذا كانت قيمته الف الف درهم

وسقط من يد الرشيد فص من ارض كان يتصيد بها فاغتم لفقده فذكر له فص

---

(١) راجع مبحث ثروة العرب في المجلد الثاني صفحة ٤٥٣ من المقتبس

ابتاعه [illegible] صاحب [illegible] بعشرين ألف [illegible]
[illegible] ووهب المأمون الحسن بن سهل [illegible] ألف [illegible]
درهم وستة عشر ألف درهم . وكان فيما أهدى [illegible] إلى [illegible] ياقوت
أحمر [illegible] وزن [illegible] ألف [illegible] . وكان [illegible]
صاحب [illegible]
يده حيث [illegible]

وقد أهدى أبو الفوارس بن [illegible] الدولة [illegible] سلطان الدولة [illegible]
[illegible] بعشرين ألف [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
فلما [illegible] في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه [illegible]
[illegible] علي بن أبي طالب [illegible]
في قسمته [illegible] عشر ألف دينار

ولما [illegible] الملك الظاهر [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] الظاهر [illegible]
[illegible]
[illegible] الملك الظاهر [illegible]
الملك الظاهر [illegible] عشرة آلاف درهم

ولما كان الملك [illegible] رحمه الله [illegible]
إليه من المدرسة [illegible] بدمشق [illegible]

دجاجة من ذهب وصيصانها من ذهب في منقار كل واحد لؤلؤة بقدر الحمصة وفي منقار الدجاجة درة بقدر البندقة وفي وسط المائدة سكرجة من زمرد سعتها مثل كفة الميزان التي تقدم بها السوق الكبير مملوءة حبات من الدر قيل ان الملك الناصر صاحب حلب اودعها نجم الدين الجوهري فأنكرها ودفنها بدهليز مدرسته فوشى بها الى الملك المنصور جارية من جواري الجوهري وكان في جميع المائدة شبكة من ذهب منسوج صغيرة الاعين محتوية بكل ما في المائدة وما لها قوائم

واهدى مقدم زاوية حماة الى الملك المنصور طشتاً من ذهب في وسطه بيت مربع له اربع طرق في اعلاه يدخل منها دم الفصاد الى داخل البيت وفي البيت بسقفه تمثال انسان متواري في البيت ورأسه وعنقه بارز من سقفه وكلما سقط في الطشت من دم الفصاد وزن عشرة دراهم رفع رأسه ذلك التمثال بصدره وظهرت في صدره كتابة عشرة دراهم ولا يزال كذلك الى مقدار ثلاث اواق دمشقية فيقف التمثال قائماً ويسمع من جوفه كلمة يونانية معناها حسبك حسبك اهـ

نقول ولا عجب فيما رواه شيخ الربوة في هذا الشأن ولكن من عرف ثروة العمال وثروة الملوك في القرون الوسطى لا يستعظم ما يقله من تلك الاخبار فقد ذكر ياقوت ان علي بن احمد الراسبي كان من عظماء العمال وأفراد الرجال في ايام المقتدر ووزارة علي ابن عيسى وكان يتقلد من حد واسط الى حد شهرزور وكورتين من كور الاهواز جنديسابور والسوس وبادرايا وباكسايا وكان مبلغ ضمانه الف الف واربعمائة الف دينار في كل سنة ولم يكن للسلطان معه عامل غير صاحب البريد فقط لان الحرث والخراج والضياع والشجر وسائر الاعمال كانت داخلاً في ضمانه فكان ضابطاً لاعماله شديد الحماية لها من الاكراد والاعراب واللصوص وخلف مالاً عظيماً وقد حمل من تركته لانه لم يعقب ما نقلته نسخته: من العين اربعمائة الف وخمسة واربعون الفاً وخمسمائة وستة واربعون ديناراً ومن الورق ثلاثمائة الف وعشرون الفاً وتسعمائة وسبعون مثقالاً ومن آنية الفضة الف وتسعمائة وخمسة وسبعون رطلاً ومما وزن بالشاهين من آنية الفضة ثلاثة عشر الفاً وسبعمائة وخمسة وخمسون درهماً ومن الند المعمول سبعة آلاف واربعمائة مثقال ومن الورد المصري اربعة آلاف واربعمائة وعشرون مثقالاً ومن العنبر خمسة آلاف وعشرون مثقالاً ومن نوافج المسك ستمائة وستون نافجة ومن المسك المنثور الف وستمائة مثقال ومن المسك الغالي الف وستة واربعون مثقالاً ومن البرمكية

الف وثلاثمائة وتسعة وتسعون مثقالا ومن العنبر ثلاثمائة وستة وستون مثقالا ومن الثياب المنسوجة بالذهب ثلاثة عشر ثوبا قيمة كل واحد ثلاثمائة دينار ومن السروج ثلاثة عشر سرجا ومن الجواهر حجران ياقوت ومن القوالب الياقوتية خمسة عشر حقا فيها عنبر وند ومن حب اللؤلؤ سبعون حبة وزنها تسعة عشر مثقالا ونصف ومن الخيل الفحول والاناث مائة واربعة واربعون راسا ومن الخدم السودان مائة واربعة عشر خادما ومن الغلمان البيض مائة وثمانية وعشرون غلاما ومن خدم الصقالبة والروم تسعة عشر خادما ومن الغلمان الاتراك عشرون غلاما باسلحتهم وسلاحهم ودوابهم ومن اصناف الكسوة ما قيمته عشرون الف دينار ومن اصناف الفرش ما قيمته عشرة آلاف دينار ومن الثياب الشروب والمثقل مائة وثمانية وعشرون رزمة ومن الجمال والبغال تسع وستون راسا ومن الخيل المسومة اثنتان وستون راسا ومن ثياب الخيام الكبار مائة وخمس وعشرون خيمة ومن الفرش والسروج اربعة عشر سرجا ومن الصحاف الصيني والاواني المحكمة الفاخرة اربعة عشر صندوقا اه

ووصف شيخ الربوة خلجان النيل وخراج ارضه قال خلجان النيل وهي سبعة كل واحد منها على حدته خليج الاسكندرية والثاني خليج دمياط والثالث خليج فيوم والرابع خليج سردوس والخامس خليج المنهى والسادس خليج سخا والسابع خليج القاهرة وبهذه الخلجان كان خراج البلاد في ايام كية وهو احد ملوك العالم الاول مائة الف الف وثلاثين الف دينار وجباه عمرو بن العاص في ايام معاوية اثني عشر الف الف دينار وجباه عبد الله بن ابي سرح اربعة عشر الف الف دينار وجباه القائد جوهر مولى العبيديين ثلاثة آلاف الف دينار ومائتي الف قال المؤرخون وذلك بسبب تقهقره الى الحالة لم يصلح عمرانها لانصراف الرجال المتوكلين عن خلجانه واصلاح جسوره وقناطره وعدم ترعه وتكلموا في ذلك وحكى ابن لهيعة مائة الف رجل وعشرين الف رجل مرتبين في كل مدة سبعون الفا للصيف وخمسون الفا لاصلاح الارض

ويقال ان ملوك القبط كانوا يقسمون الخراج اربعة اقسام قسم لخاصة الملك وقسم لارزاق الجند وقسم لمصالح الارض وقسم آخر لحادثة تحدث ومسحت ارض مصر في ايام هشام بن عبد الملك بن مروان فكان ما يركبه الماء العامر والغامر ثلاثين الف الف فدان واعتبر احمد بن المدبر ما يصلح للزرع بمصر وقت ولايته فوجده اربعة وعشرين

الف الف فدان والباقي قد استبحر وتلف واعتبر مدة الحرث فوجدها ستين يوما والحرّاث الواحد يحرث خمسين فدانا فكانت تحتاج الى اربعمائة الف حرّاث واربعين الف حرّاث والله اعلم

كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتابا الى عمرو بن العاص وكان عاملا بمصر يقول اما بعد يا عمرو اذا أتاك كتابي هذا فابعث الي جوابه تصف لي مصر ونيلها واوضاعها وما هي عليه حتى كأني حاضرها فعاد اليه مكتوب بجواب كتابه يقول : بسم الله الرحمن الرحيم اما بعد يا امير المؤمنين انها تربة غبراء وحشيشة خضراء بين جبلين جبل رمل وجبل كأنه بطن أقب وظهر أجب مكتنفها وعرضها ما بين أسوان الى منشا العريش يخط وسطها نهر مبارك الغدوات ميمون الروحات يجري بالزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر له اوان تظهر اليه عيون الارض وينابيعها مسخرة له بذلك ومأمورة له حتى اذا اصلخم لجاجه وتعظمت امواجه واغلولت لججه لم يبق الخلاص الى القرى بعضها الى بعض الا في خفاف القوارب او صغار المراكب التي كأنها في المخايل ورق الابابيل ثم عاد بعد انتهاء اجله نكص على عقبه كأول ما بدا في دربه وطمى في سربه ثم استبان مكنونها ومخزونها ثم انتشرت بعد ذلك أمة محقورة وذمة مخفورة لغيرهم ما سعوا من كدهم وما نالوا بجهدهم شقوا بطون الارض وروابيها ورموا فيها من الحب ما يرجون به التمام من الرب حتى اذا احدق فاستبق واسبل قنواته سقاه الله من فوقه الندى ورواه من تحته الثرى وربما كان سحاب مكفهر وربما لم يكن وفي زمان ذلك يا أمير المؤمنين ما تغني ذبابه ويدر حلابه فبينما هي يا امير المؤمنين درة بيضاء اذ هي عنبرة زرقاء اذ هي سندسية خضراء اذ هي ديباجة رقشاء اذ هي درة بيضاء اذ هي حمأة سوداء فتبارك الله احسن الخالقين وفيها ما يصلح احوال اهلها ثلاثة اشياء اولها لا يقبل قول رئيسها على خسيسها والثاني يؤخذ ارتفاعها يصرف في عمارة ترعها وجسورها والثالث لا يستأدى خراج كل صنف الا منه عند استهلاله والسلام اه .